فى دائرة الفن

ألوان وظلال

كلمات: عصام بدوى / صور: فوزى مصرللى

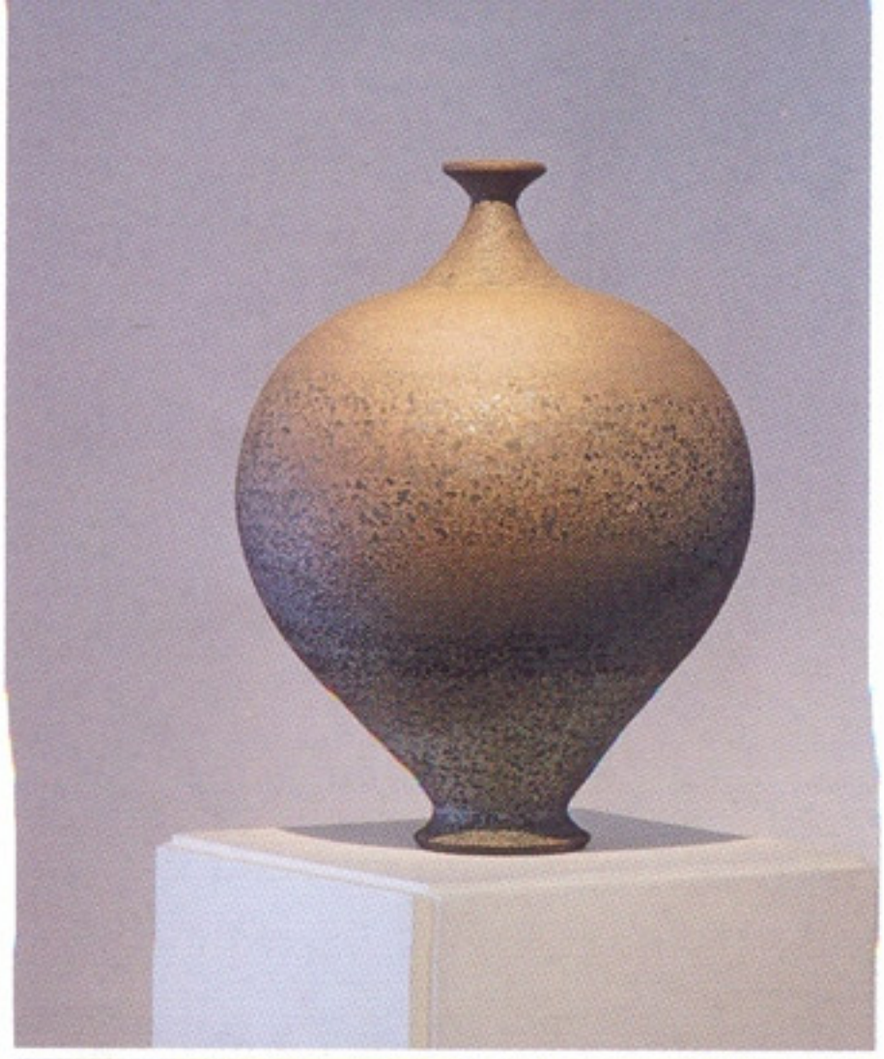

الفيلسوف المعمر ليس صفة لحكيم من الحكماء وإنما هى الصفة التى أطلقها فنان الأوانى الفخارية محمد مندور.. لم يطلقها على إنسان وإنما أطلقها على الإناء الفخارى نفسه لأن الإناء يطل علينا دائما بأعظم الدروس وهو أحكم من كل الحكماء.

تستطيع استشعار هذه الكلمات من خلال الحوار الصوفى الفريد بين مندور وأوانيه التى قدمها فى معرضه الأخير فى جاليرى مسار بالزمالك تحت اسم ألوان وظلال.. ليس فى أوانى مندور ما يبهر العين أو يخطف البصر ـ كما وصفها الفنان بيكار ـ فهى خالية من البريق الزجاجى الذى تتلاعب فوقه الأضواء، وهى عارية من أى زخرف يلهينا عن شكل القطعة وجسدها، ولكنه يقدم جسد العمل على فطرته مجردا من أى عنصر جمالى دخيل، فمندور يؤمن بأن فطرة الإناء هى قلبه الخالص الذى تغزله أنامل «الفخرانى» فهو يستمد حيويته من حرارة أصابع الفنان المبللة بالعرق والطين ويستمد نبضه من إيقاع قدميه أثناء دفعهما للدولاب الدوار متزامنا مع دورات الحياة وإيقاع الزمن.

وأمام أحد فواخيره وقف مندور ثم ابتسم قليلا وهو يلامس انحناءاتها وكأنه يغازل جسدها وتمتم بكلمات كان فحواها «على الرغم من التواضع الشديد للإناء الفخارى فهو الشىء الوحيد الذى يربطنا ويذكرنا بنشأتنا الأولى وأجدادنا الأوائل ساكنى هذا الوادى منذ آلاف السنين»، فهو يرى أنه على الرغم من انقراض الهيروغليفة كلغة متداولة منذ عشرات القرون إلا أن الإناء الفخارى ظل محتفظا بلغته الأصلية يحكى ببصمته البليغة تاريخا سحيقا لم تولد فيه الحروف والكلمات.

ويرى مندور أن الإناء الفخارى أفاض علينا بأعظم الدروس متصورا الإناء وكأنه يتحدث لنا قائلا: «أنا ابن عمك يا إنسان، كلانا خلق من نفس الطين واكتوى بنفس النار غير أن نارى لهب وشرار ونارك نبعت من احتكاك بالزمان»، إنها حكمة الإناء الفيلسوف التى استطاع مندور أن يجسدها فى أوانيه الفخارية دون افتعال أو ادعاء.

وبين أروقة قطع مندور الجديدة يكاد نظرك ينزلق ويسبح بين ثنايا الإناء صعودا وهبوطا متتبعا الالتفافات الانسيابية، فانحناءات مندور جاءت وكأنها ترنيمة بدوية فى جوف الصحراء، فمقابض القطع جاءت مدروسة بدقة تحت فوهات رشيقة تجاوزت النسب التقليدية التى كانت تفرضها ضرورات استعمالية بعد أن تحول الإناء من وعاء نفعى لاحتواء السوائل إلى عمل مجرد خالص يخاطب أحاسيسنا.

إن مندور حقا لا عمل له سوى إبداع الآنية الجمالية غير النفعية التطبيقية، فأوانيه كاللوحات التصويرية والتماثيل نراها لقيمتها الجمالية، وليس لوضع الزهور فيها، فمسألة الصنعة الفنية لا تأخذ من تفكيره ولا من مشاعره وقتا، فهو كمؤلف الموسيقى الذى لا تشغله تقنيات العزف على العود واللعب بأصابع البيانو بقدر ما يهمه السيمفونية الوليدة، فهو الفنان الذى بدأت مسيرته فى السادسة من عمره بين جنبات فواخير مصر القديمة، يصنع أوانيه على القرص الدوار (الحجر) حتى أصبح بلا جدال حين يقدم أوانيه الفنية الجمالية فى المعارض الفردية أو الجماعية أستاذ «الفورم» أى شكل الحجم، وأنت أمام أعماله لا تملك سوى أن تقف صامتا ليتطرق إلى أذنيك صوت الحكمة المنبعث من بين ثنايا أوانيه الفخارية، وقد يطويك تحت عباءته إحساس غامض وأنت تقف أمام أوانيه السمراء رغم أننا اعتدنا رؤيتها.